

الفرزدق قيناً في شعر جرير

دراسة في مصدر الصورة وتأصيل دلالاتها

خليل عبد سالم الرفوع*

ملخص

يقدم هذا البحث قراءة جديدة في صورة تجلت في شعر جرير، وهي تصوير الفرزدق قيناً وأن آباءه قيون، ووقفت الدراسة على مصدر الصورة وتفرعاتها المختلفة وتبين أن مصدر الصورة جاهلي اقتنصه جرير من صورة نافع الكير فأصل الصورة، ووُلد منها دلالات فنية جديدة.

وكان لقب القين دالاً على الفرزدق وحده، وتنوعت أساليب الخطاب بهذا اللفظ ومصاحباته، ووقفت الدراسة على كلف ليلي جدّة الفرزدق بالقين جُبِّر فنسبه جرير إليه، ويظهر الفرزدق وآبؤه القينون متعالقين بأدواتهم، ويحرضون على توريتها لأنثائهم أو دفنها معهم، ولهذا كانوا أذلةً يقعدون مع الخوالم منشغلين عن الحرب وطلب المعالي بالنفخ في الأكيار والتجارة بصفائح الحديد.

Abstract

The study presents a new reading of the references in Jarir's poetry to al-Farazdaq and his ancestors as blacksmiths. The study traces the source of image back to Jahili poetry where the image of the bellows blower, an image similar to that of the blacksmith, is frequently used. Jarir seems to have borrowed this image from Jahili poetry and used it as a reference to al-Farazdaq with the intention to demean him and his ancestry. The study explores the connotations added by Jarir in his reference to al-Farazdaq. For instance, there is the story of Laila, al-Farazdaq's grandmother, who was claimed to have fallen in love with the blacksmith Jubair, and hence Jarir's sarcastic reference to al-Farazdaq as a descendent of Jubair. Generally, al-Farazdaq and his ancestors are delineated in Jarir poetry as blacksmith attached to their tools and take every care to bequeath them to their children or else bury them in their graves. Of course, the idea is that al-Farazdaq and his ancestors are base and they tardy in times of war blowing bellows and trading in metal instead of questing for glory in war.

* قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة مؤتة، المملكة الأردنية الهاشمية.

تاريخ قبول البحث: 2004/1/20.

تاريخ استلام البحث: 2003/8/11.

1- مصدر الصورة شعرياً

لم تنقطع رواية الشعر الجاهلي في صدر الإسلام والعصر الأموي فظل بينيته وأسلوبه ومضامينه مصدراً أصيلاً وحقلاً خصباً يلتفت إليه الشعراء الأمويون، وبخاصة شعراء النقائض؛ إذ إن نقائضهم هذه تعالّق- في كثير من أشكالها ومضامينها ومفرداتها- مع الشعر الجاهلي، أمّا من حيث الشكل والمضمون، "فقد اختصت النقائض بالمحافظة على نظام القصيدة الجاهلية في بنائها، إذ كانت النقيضة محاولة جادة من هؤلاء الشعراء في تقليد القصيدة الجاهلية في بنائها واشتمالها على الأغراض التقليدية المألوفة من نسيب وذكر للرحلة ووصف للناقة أو الفرس، وفخر أو مدح أو رثاء، وغير ذلك مما نجده عادة في القصيدة الجاهلية"⁽¹⁾.

وأما من حيث اللغة فإن القارئ للشعر الجاهلي وللنقائض لا يجد اختلافاً كبيراً في الألفاظ؛ فكانت المحافظة على اتباع نظام القصيدة الجاهلية سبيلاً حرص عليه شعراء النقائض، ولا يعني هذا أن تقليدهم كان محاكاة دقيقة لدلالات الصور وانزياحات الألفاظ، فالتطور الدلالي سمة غير خافية في الشعر، وثمة نظر فيما ذهب إليه الدكتور عبد القادر القط من أن شعراء النقائض "لا يكتفون في التقليد باحتذاء ذلك الإطار العام للقصيدة الجاهلية، بل يرددون في كل جزء من أجزاء الصورة الشعرية نفسها ما استخدمه الجاهليون من ألفاظ بعينها"⁽²⁾، فإذا كان الجزء الأول من العبارة السابقة صحيحاً، فإن الجزء الثاني مردود غير مقبول لأن دراسة الصورة الشعرية وانزياحات مفرداتها من خلال سياقها الدقيق يفضي إلى اختلاف مؤكد في الدلالة والإيجاء، فلم تكن القصيدة الجاهلية المصدر الوحيد لشعر النقائض، فقد أفادت كذلك من القرآن الكريم والشعر الإسلامي ومن التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية في زمنها وقد تضافرت هذه المعطيات والبواعث-أصلاً- في نشوء هذه النقائض وتبلّرها كما أنها تظهر رقيّ العقل العربي آنذاك وقدرته على المناكفة الدقيقة، والمناظرة العميقة ونقض الفكرة الكلية بتفاصيلها، "وهكذا كانت النقيضة تتألف من عناصر قديمة تتصل بهذا الحس التاريخي بكل ما للعرب في جاهليتهم من حروب ومآثر، كما تتألف من عناصر جديدة"⁽³⁾، ومن الصيغ الشعرية التي تكرر ذكرها في شعر جرير أحد أشهر شعراء النقائض فكرة القين، فهي ترد أحياناً مُجَمَلَةً وفي أحيان أخرى ترد مُفصَّلةً، ويمكن أن أقرر أن أصل هذه الصورة مستمد من الصيغة الجاهلية، ففي الشعر الجاهلي يطلق القين على صانع الحديد⁽⁴⁾ وبخاصة نافخ الكير⁽⁵⁾، وغابت صورة القيون وراء ذلك الشور المتناثر أثناء طرقهم الحديد بأدواتهم، ومن ذلك قول ضابئ بن الحارث يصف ثوراً وحشياً⁽⁶⁾:

يُسَاقِطُ عَنْهُ رَوْقَهُ ضَارِيَاتِهَا سِقَاطُ حَدِيدِ الْقَيْنِ أَخْوَلُ أَخْوَلَا

وأطلق كذلك على صانع آنية النحاس، يقول النابغة الذبياني⁽⁷⁾:

كَأَنَّ شِوَاظَهُنَّ بِجَانِبِيهِ نُحَّاسُ الصِّفْرِ تُضْرِبُهُ الْقِيُونُ

وأطلقت كذلك على صانع آنية الذهب، يقول الأعشى⁽⁸⁾:

أَوْ إِنَاءِ التُّضَارِ لِأَحْمَهُ الْقَبِ — مِنْ وَدَارَى صُدُوعَهُ بِالْكَتِيفِ

ومن الجدير ذكره أن العرب لم تزد الصناعة، ولم تغض من مكانة الصانع، لأنهم يعتمدون عليها في كثير من شؤون حياتهم، ولم نلحظ في الشعر الجاهلي إلا إزدراء واحتقاراً لنافخ الكير، فقد كان هذا القين يتحول بين القبائل ليصلح الأواني أو يصنع الأدوات البسيطة؛ فلفت منظره الناس وهو ينفخ كيره، ولذلك سحروا من حاله واحتقروا مهنته، ورأوا في حرصه على هذا العمل المهين وضاعة وخسة، وهذا ما عبّر عنه عمرو بن كلثوم في هجائه النعمان بن المنذر، إذ عرض بحاله الذي كان ينفخ الأكيار في يثرب لصناعة الأقرط، يقول عمرو⁽⁹⁾:

لِحَا اللَّهِ أَدْنَانَا إِلَى اللُّؤْمِ زُلْفَةً وَالْأَمْسَا خَالًا وَأَعَجَزْنَا أَبَا

وَأَجْدَرْنَا أَنْ يَنْفُخَ الْكَيْرَ خَالَهُ يَصُوغُ الْقُرُوطَ وَالشُّوفَ يَيْثَرِبَا

وهذا أمية بن خلف الخزاعي يهجو حسان بن ثابت ويذكره بأبيه الذي كان حداداً ينفخ الكير أثناء عمله، يقول⁽¹⁰⁾:

يَمَانِيًّا يَظَلُّ يَشُدُّ كَيْرًا وَيَنْفُخُ دَائِبًا لَهَبَ الشُّوَاظِ

ونخلص إلى أن جريرا اقتنص فكرة القين من الشعر الجاهلي، إذ كانت دلالة مؤصلة ومعروفة عند الشعراء الجاهليين، فالقين يعني نافخ الكير الأجير بأدواته البسيطة التي يتحول بها بين القبائل، ولباسه البالي، ومنظر جسمه المضحك أثناء قيامه بنفخ الكير، إذ تنتفخ أوداجه وتتحفظ عيناه ويتعفر وجهه بالرماد، فدلالة القين تعني في الثقافة الشعرية القديمة بما فيها شعر جرير، نافخ الكير المستأجر، وكانت صورته مضحكة قبيحة، وهذا ما يريده جرير من توظيف فكرة القين بما تحمله من موروث دال تقاطع مقاصده مع النقائص، وهل يريد جرير غير إضحاك الناس من ناحية وتحقير الفرزدق من ناحية أخرى؟!

2- فكرة القين من وحدة الدلالة إلى تنوعها

إن فكرة القين ومرادفاتها من ألفاظ وصور من أكثر المضامين الشعرية وروداً في نقائص جرير، ولعل هذا ما جعل بعضاً من رواة الشعر القدماء يصدر عن رأي هو: أن جريراً لا يخرج في نقائصه في هجائه للفرزدق عن ثلاثة موضوعات، هي: تشبيهه بالقين، والتشنيع على أخته جعثن وقذفها بالفاحشة، وهجاء قومه بمحاشع

بقتل حوارى الرسول -عليه الصلاة والسلام- الزبير بن العوام، وربما أضيف إليها نـبـوُ السيف في كـفـ الفرزدق.

ومن الآراء الأولى التي ضبطت هذا النقد الانطباعي قول أبي عبيدة معمر بن المثنى عن جرير والفرزدق حينما سُئل أيهما أشعر؟ فقال لسائله أبي سهيل عبدالله بن ياسين: "ويحك هل قال جرير للفرزدق إلا في ثلاثة أنواع: الزبير وجعثن والقين وللفرزدق فيه مائة نوع"⁽¹¹⁾.

"وعن أبي عبيدة قال سمعت أبا الخطاب الأحفش يقول - وكان أعلم الناس بالشعر وأنقدهم له وأحسن الرواة دينا وثقة: لم يهج جرير الفرزدق إلا بثلاثة أشياء يكررها في شعره كلها كذب، منها جعثن والزبير والقين"⁽¹²⁾.

وبعد أن يذكر أبو الخطاب الأحفش أبياتاً شعرية تؤكد تكرار جرير لهذه المضامين يقول: "فلم يجاوز جرير هذا ولم يحسن فيه، ولا نجد للفرزدق قصيدة إلا وفيها هجاء بديع ليس في الأخرى مثله"⁽¹³⁾.

ويروى خبر آخر منسوب إلى أبي الغوث ينجي عن أبيه البحراني أنه كان يقدم الفرزدق على جرير لأن أهاجي جرير كلها تدور على أربعة أشياء، هي: القين والزنا وضرب الرومي بالسيف والنفي من المجد ولا يهجو الفرزدق بسوى ذلك⁽¹⁴⁾، وحسب رواية المرزباني فإن الأشياء الأربعة هي: القين وقتل الزبير وبأحسه جعثن وامراته النوار⁽¹⁵⁾.

والحق أن الخبرين الأول والثاني لم يصدرا عن ناقلين بصيرين بالشعر، إنما هما حافظان للشعر وراويان له، ولا يعدو نقدهما عن أن يكون نقداً انطباعياً اختزالياً غير قائم على استقصاء للمضامين الشعرية ودلالات الصور والألفاظ ولا يستند إلى تعليل منهجي لأساليب التعبير، وأما الخبر الثالث فإننا نلاحظ أن ابن الأثير يتهم راوي الخبر بالكذب ولا يقبل روايته "لأن البحراني عنده ألب من ذلك، وهو عارف بأسرار الكلام، جبير بأوساطه وأطرافه وجيده ورديته وكيف يدعي على جرير أنه لم يهج الفرزدق إلا بتلك المعاني الأربعة التي ذكرها وهو القائل:

لَمَّا وَضَعْتُ عَلَى الْفَرَزْدَقِ مَيْسِيَّ وَعَلَى الْبَيْعِثِ جَدَعْتُ أَنْفَ الْأَخْطَلِ

فيجمع بين هجاء هؤلاء الثلاثة في بيت واحد"⁽¹⁶⁾.

وينفي أبو هلال العسكري خبر البحراني السابق ويرى بأنه زعم⁽¹⁷⁾ مكتفياً بهذا الرفض دون أن يقف على

أبعاد المسألة ومناقشتها.

وإذا ما استقصينا المعاني التي تضمنتها نقائص جرير للفرزدق نجد أنها لا تقتصر على تلك المعاني الأربعة بل هي كثيرة ومتنوعة ومكرورة ومن أشهرها: تعداد مآثر أجداده⁽¹⁸⁾، والتفاخر بقتل الملوك وارتداد حمى

الأعداء⁽¹⁹⁾، ومواقعة الفرزدق للزنا⁽²⁰⁾، وأقامه بدينه وأنه رجس ولا يبالي بالمحرمات⁽²¹⁾، وأنه فاجر⁽²²⁾، ويشرب الخمر⁽²³⁾، وأن زوجه النوار كثيرة اللوم له⁽²⁴⁾، وأن زوجه الأخرى حذراء تنفر منه⁽²⁵⁾، ويعيره بجدته التي واقعت عبداهما⁽²⁶⁾، ويهجو قوم الفرزدق ويعدد مخازيهم⁽²⁷⁾، ويشبههم بالنساء وأنهم حلائل له⁽²⁸⁾، ويهجو أم الفرزدق⁽²⁹⁾، ويشير إلى قصة طرد عمر بن عبد العزيز له من الحجاز⁽³⁰⁾، ويشبهه بالقرء⁽³¹⁾، كما يشبهه بشقي عمود⁽³²⁾، ويلحقه بالنصارى⁽³³⁾ وأنه وثني⁽³⁴⁾، ويسجد للصليب⁽³⁵⁾، وأنه مجوسي⁽³⁶⁾، ولم يستطع أن يثار لأبيه من أبي فقيم⁽³⁷⁾، ويذكر أن بنات مجاشع مأوى اللصوص وملعب العهار⁽³⁸⁾، وفخره عليه بالشعر وتفوقه عليه وعلى غيره من الشعراء⁽³⁹⁾.

وكل معنى من هذه المعاني السابقة يشكل صورة عامة تتولد منها معانٍ وصور تؤكد أصالة جرير ومقدرته الفنية، فقد نما العقل العربي في هذا العصر الأموي وأوتي حظاً وافراً من الجدال والمناظرة والحوار، وكان ذلك ميزة امتاز بها شعراء النقائض، فقد أخذوا يتناظرون في حقائق القبائل ومفاخرها ومثالبها كل منهم يدرس موضوعه دراسة دقيقة ويبحث في أدلته ليوثقها وفي أدلة خصمه لينقضها دليلاً⁽⁴⁰⁾.

"فقد نهض جرير والفرزدق بالنقائض واستعاننا فيه بكل ما يمكن من توليد للمعاني وتركيب فيها، أما من حيث التركيب فقد أدخلها عليها معاني جديدة اجتلباها من الإسلام ومن المسائل العقلية التي اصططرع فيها العلماء والناس، وأما من حيث التوليد فإن المعنى الذي يدور في نقائضهما كانا يعرضانه في صور مختلفة"⁽⁴¹⁾

فقد تحول المهجاء عند هؤلاء الشعراء إلى حرفة وصناعة فهم يبذلون غاية جهدهم في تجويد الصنعة وإتقان المهجاء ليظفر برضى مستمعهم وإعجابهم⁽⁴²⁾.

وفكرة القين من المعاني التي ترد في شعر جرير، وهي ترد في كل نقيضة من نقائضه، فهو يولد منها معاني جديدة ويلونها بتلوينات مثيرة مدهشة ويفرغ منها صوراً ساخرة طريفة، ويقلبها تقليبات دقيقة متوافقة على أنحاء شتى، ولعل أول من تنبه إلى أن جريراً أورد هذا المعنى على أساليب مختلفة وتصرف فيه أبو جوه التصرفات هو ضياء الدين بن الأثير إذ يقول معبراً عن ذلك: "فقد أبرز جرير من هجاء الفرزدق بالقين كل غريبة وتصرف فيه تصرفاً مختلف الأنحاء"⁽⁴³⁾، ويؤكد شوقي ضيف أن جريراً كان يولد في المعاني والصور، ففي الظاهر يدور حول فكرة عامة واحدة، وفي الحقيقة يغوص في هذه الفكرة ويستخرج كل ما يمكن من أصدافها ولآئها⁽⁴⁴⁾.

وترجع قدرة جرير الفنية على توليد الصورة وخلقها إلى فحولته الشعرية وتفننه بضروب الشعر، فقد روى عنه أبو الفرج الأصفهاني قوله بعد أن عدد محاسن زهير والفرزدق والأخطل إذ قال عكرمة ابنه له: "فما تركت لنفسك؟ قال: دعني فإني نخرت الشعر نحرًا"⁽⁴⁵⁾ وفي موضع آخر يقول جرير عن نفسه "وأما أنا فمدينية

الشعراء⁽⁴⁶⁾ ويقول عنه الشاعر بشار بن برد: كان جرير يحسن ضروباً من الشعر لا يحسنها الفرزدق وفضل عليه جريراً⁽⁴⁷⁾.

ولعل نخره للشعر نحرأ، وأنه مدينة الشعر، وإحسانه لضروب لم يحسنها غيره، تؤكد قدرته على ابتكار المعاني الجديدة - كما ذكرت سابقاً- والتلاعب الفني بكل معنى منها، ولذا كان مقدماً شعرياً عند أبي هلال العسكري لأنه: "المستولي عليه من جميع جهاته المتمكن من جميع أنواعه وبهذا فضله على الفرزدق وقالوا كان له في الشعر ضروب لا يعرفها الفرزدق"⁽⁴⁸⁾.

3- الفرزدق قيناً

أ- تخصيص اللقب:

لقد استطاع جرير أن يستخدم فكرة القين ويغير من نمطية الصور ويجعلها ذات دلالات مختلفة، لكنها في دلالتها العامة ترتبط بالفرزدق وتدل عليه، وفي ذلك يستطيع الباحث أن يُقَيِّدَ الملاحظات الدقيقة التالية:
أولاً: إن جريراً هو الذي ابتكر هذا اللقب وأطلقه على الفرزدق حتى أضحي أكثر لقب أطلق عليه في شعر جرير وبقي الفرزدق طوال حياته يخشى جريراً، ويخشى أن يصفه بلقب جديد، وخير لقب القين يروييه الفرزدق نفسه في هذا الأثر وهو: "أن رجلاً استعان بالفرزدق فسأله أن يمشي معه إلى موالي بني سعد في حاجة، فقال الفرزدق للمستعين به: "إن عمي كان لها قين، فلما هجاني جرير جعلني قيناً بذلك السبب، وإن الرجل الذي تستعين بي عليه صاحب سماد، ولئن بلغ جريراً أني مشيت معك ليجعلني في شعره كسأحاً فلم يمض معه"⁽⁴⁹⁾.

ثانياً: لا تكاد قصيدة من قصائد جرير التي يذكر فيها الفرزدق تخلو من هذه الدلالة، وهذا يعني أن الفكرة كانت تلح على جرير وتفتح أمامه مضامين مكررة حيناً ومبتكرة حيناً آخر.

ثالثاً: لم يطلق جرير هذا اللقب إلا على الفرزدق على الرغم من كثرة نقائضه مع الشعراء، بيد أن ثمة أربع إشارات شعرية يرد فيها شاعر آخر لقباً بالقين وهو البيث، وقد وردت تلك الدلالة في موضعين فاصلاً بين الفرزدق والبيث، وفي موضعين آخرين جامعاً بينهما، والموضعان الأولان هما قول جرير⁽⁵⁰⁾:

دَعُوا المَجْدَ إِلَّا أَنْ تَسُوْقُوا كُرُومَكُمْ وَقَيْنَا عِرَاقِيًّا وَقَيْنَا يَمَانِيًّا⁽⁵¹⁾

ويعلق أبو عبيدة على هذا البيت قائلاً: "وقوله قيناً عراقياً يعني البيث وقيناً يمانياً يعني الفرزدق، وإنما قال ذلك لموضع منازلهم"⁽⁵²⁾.

والإشارة الأخرى هي قول جرير مؤكداً ترك هجاء البيث لانشغاله بهجاء الفرزدق⁽⁵³⁾:

وَلَمَّا اتَّقَى القَيْنَ العِرَاقِيَّ بِاسْتِهِ فَرَعْتُ إِلَى القَيْنِ المُقَيِّدِ فِي الحِجْلِ

وأما الموضوعان الآخران اللذان جمع فيهما بين الفرزدق والبعيث، فهما قوله (54):

قَرَأْتُ الْعَبْدَ عَبْدًا بَنِي مُمَيْرٍ مَعَ الْقَيْنَيْنِ إِذْ غَلَبَا وَحَابَا

وجمع بينهما من حيث نسبهما إلى قبيلتهما مجاشع في قوله (55):

تَرَكْتُ لَكَ الْقَيْنَيْنِ قَيْنِي مُجَاشِعٍ وَلَا يَأْخُذَانِ التُّصْفَ شَتَّى وَلَا مَعَا

ونلاحظ من خلل الآيات الأربعة السابقة أن جريراً لم يفرد البعيث بالقين وحده، بل كان الفرزدق حاضراً معه وهذا يعني أن إلحاق جرير لقب القين بالبعيث لم يكن إلا لأنه مجاشعي، وسرى جريراً يصف بني مجاشع بالقين، ولعل البعيث شعر بأنه قرين بالفرزدق خطأ، فقال يدفع عن نفسه هذه التهمة الجريرية، حينما هجا الفرزدق (56):

تَنَاورُمْتُمْ لِأَعْيُنِ إِذْ دَعَاكُمْ بِنِي الْقَيْنَاتِ لِلْقَيْنِ الْيَمَانِيِّ

رابعاً: لم يرد في شعر الفرزدق أي رد على فكرة القين التي وصمه بها جرير، وهذا يعني أن نقائض الفرزدق كانت ناقصة إذ إن النقائض تتطلب نقض هذا اللقب ومرادفاته المختلفة، وأغلب الظن أن الفرزدق لم يدرأ عن نفسه هذه التهمة الشعرية لأنه يعلم أن الفكرة محض افتراء خيالي تصوري لا تستند إلى واقعة تاريخية، والقلري في ديوان الفرزدق يلحظ أنه لم يتكرر لقباً يوازي اللقب الذي وصمه به جرير وأصبح دالاً عليه وحده.

2- أسلوب الخطاب:

إن الخطاب بالكنية ظاهرة أسلوبية عبر من خلالها جرير عن طاقة لفظية مشحونة بسحرية لاذعة تشي بانفعالاته النفسية المتنامية نحو الفرزدق، فهي تلمذ برضى توافقي من المتلقي من ناحية، وتعكس العلاقة التضادية المتأججة بينه وبين الفرزدق، وبها ومنها يُحَدِّثُ في نفس الفرزدق هزات عنيفة تجعله يشعر بتوتر وقلق يضعانه في النهاية على حقيقة مقنعة، هي أنه قين فعلاً، وليس مُشَبَّهًا به فحسب، وجرير في خطاب الفرزدق ووصفه بالقين "يمر بذلك مرور من يلقي الخير وكأنه حقيقة مفروغ من صحتها لا تحتاج إلى إثبات" (57)، وقد استطاع جرير أن يحدث ذلك من خلال تنويع أساليب الخطاب وتكرير هذه الأساليب، ومن يقرأ نقائض جرير في الفرزدق يلحظ أن لقب القين أينما يرد يراود به الفرزدق وقد تكرر ذلك كثيراً في شعره، بأساليب لفظية مختلفة ومنها القين وقد ذكر هذه الصيغة في مواضع كثيرة منها قوله هاجياً البعيث والأخطل والفرزدق إذ جمعهم وربطهم في حبل واحد كما تجمع الضأن وتفيد بربق واحد، يقول (58):

قَرَأْتُ الْبُعِيثَ إِلَى ذِي الصَّلِيبِ مَعَ الْقَيْنِ فِي الْمَرَسِ الْوَاحِدِ

ويخاطبه بابن القين، ومن ذلك قوله في وصف الفرزدق أنه لا يستطيع أن يذود عن حماه وحمى قومه مجاشع⁽⁵⁹⁾:

فَأَحْزَيْتَ يَا ابْنَ الْقَيْنِ آلَ مُجَاشِعٍ فَأَصْبَحَ مَا تُحْمِي مَبَاحًا مُدْعَاً

وقد جمع بين الأسلوبين السابقين في قوله⁽⁶⁰⁾:

هُوَ الْقَيْنُ وَابْنُ الْقَيْنِ لِأَقَيْنَ مَثْلُهُ لِقَطْعِ الْمَسَاحِي أَوْ لِحَدَلِ الْأَدَاهِمِ⁽⁶¹⁾

فهو قين احترف القيامة نسباً وفعلاً، ومن يقوم بعمله في بري الأمشاط الحديدية وقتل القيود؟ ويطلق على بني مجاشع القيون ومن ذلك قوله⁽⁶²⁾:

فَرَعْتُ مِنَ الْقِيُونِ وَعَضُّ تَيْمَاءً فَرُنْدُ الْوَقْعِ لَيْسَ بِذِي فُلُولِ⁽⁶³⁾

ويطلق عليهم بني القين، يقول⁽⁶⁴⁾:

ضَعَا الْقِرْدُ لَمَّا مَسَّهُ الْجَهْدُ وَاشْتَكَى بَنُو الْقَيْنِ مِمَّا حَدَّ نَابٍ وَكَلَّكَلِ

ويصفهم ببني بنت قين نافعاً نسبتهم إلى الزبيرقان بن بدر سيد عميم في الجاهلية يقول⁽⁶⁵⁾:

فَإِنْ تَدْعُوا لِلزَّبْرِقَانِ فَإِنَّكُمْ بَنَوِابْنَتِ قَيْنِ ذِي عِلَاةٍ وَمِرْحَلِ

ويذكره بنسبه وحده نافع الكير، وهيها أن ينسب الفرزدق إلى مجد أولئك السادة الكبار ويطاول عزهم، يقول جرير⁽⁶⁶⁾:

لَعَلَّكَ تَرْجُو يَا ابْنَ نَافِعِ كَيْرِهِ قُرُومًا شَبَا أَتْيَابِهِمْ لَمْ يُفَلِّلِ

ويخاطبه بابن ذي الكيرين، الذي بنى بيتاً يخلو من الشرف الرفيع والرجال العظاماء، وأنه لبيت حقير تعيش فيه صغار الخنازير والنحل، يقول⁽⁶⁷⁾:

وَفِيمَ ابْنِ ذِي الْكَيْرَيْنِ مِنْ بَيْتِ خَالِدٍ وَهَلْ يَجْمَعُ الْبَيْتُ الْخَنَائِصَ وَالنَّحْلَ

وتنوع صيغ الخطاب التعبيرية التي تدل على الفرزدق في شعر جرير تعبر عن انشغال جرير بممارسة الهجاء الفني معتمداً على ذاكرته التاريخية وتنوع الأنماط الوصفية، وكثرة إيرادها وهو تنوع تضمن تعدداً في الدلالة، كما يدل على مهارة جرير في استقصاء الدلالات الأسلوبية للفظة القين وتوليد معان جديدة تنمهي معها.

4- أصل الصورة وتأصيلها

1- كلف ليلي مجير:

لقد استوحى جرير قصة القين من حادثة تاريخية واقعية، وهي أنه كان لجد الفرزدق صعصعة وجدته ليلي قيون عبيد منهم: جبير ووقبان وديسم، فادعى جرير أن جبيراً اتصل بليلى وواقعها، فنسب جرير غالباً أبا الفرزدق إلى ذلك القين⁽⁶⁸⁾، فقد استطاع جرير أن يحرف هذا الخبر التاريخي ويصرفه عن معناه الحقيقي إلى

فكرة شعرية طريفة ومدهشة استمدتها من خياله التصويري فصاغها شعراً وبنى عليها حقائق فنية محضة، ومنها تلك الشهوة الجنسية العارمة التي تضطرم في جسد ليلي حينما تذكر عبدها جبيراً غير آهة بزوجها صعصعة، وقد تحولت هذه الشهوة إلى مرض أسقم نفسها وجسمها، ولم تعد قادرة على الخلاص منه أو الشفاء من أسبابه، يقول جرير (69):

إِذَا ذَكَرْتُ لَيْلَى جُبَيْرًا تَعَصَّرْتُ وَلَيْسَ بِشَأْفٍ دَاعِيهَا أَنْ تَعَصَّرَا

ويزداد كلفها به كلما صدها ذلك القين، بيد أنها لا تتوقف عن محاولة صيده وممارسة الزنا معه، يقول (70):

لَحَى اللَّهُ لَيْلَى عَرَسَ صَعْصَعَةَ الَّتِي تُحِبُّ بِشَارَ الْقَيْنِ وَالْقَيْنُ مُعْدِفُ

وليلي لا تخفي علاقتها بجبير بل تعلنه أمام الملأ من خلال إعلان كلفها المتنامي به، وهي لذلك لا تستحي من أن تظهر بشبق وجدها بعرقه المتن الذي يتفصد من جسده حين يمارس حرفته، ويتهكم جرير من قومها الذين يسوِّغون ذلك الوجد بأنه هو المولع بها وليس هي، وتسويغهم هذا لا يقلُّ وقاحةً من فعل الزنا نفسه، يقول جرير (71):

لَيْلَى الَّتِي زَفَرْتُ وَقَالَتْ حَبْدًا عَرَقَ الْقِيَانَةَ مِنْ جُبَيْرٍ يَنْبُعُ
كُلُّ الَّذِي غَيْرْتُمْ أَنْ قُلْتُمْ هَذَا لَعْمَرُ أَبِيكَ قَيْنٌ مُوَلِّعُ

ويستوحى جرير من فعل الفاحشة طقساً دينياً، إذ يحوِّله إلى ممارسة دينية عقدية تحرص عليها ليلي حينما تدلف إلى القين لمواقعته، وكأنها تعتمر وتحج، فالزنا يمثل لها طقساً تغتفر فيه كل ذنوبها، وبعد المواقعة ظل يمارس حرفته بين ظهرانيهم، وينفخ في كيره مُطَيِّراً الشرر والدخان على وجوههم كناية عما ألحقه بهم من علر وذل، يقول جرير (72):

فَدَيْتِكَ يَا فَرَزْدَقُ دَيْنٌ لَيْلَى تَزُورُ الْقَيْنَ حَجًّا وَعَتَمَارًا
فَطَلَّ الْقَيْنُ بَعْدَ نِكَاحِ لَيْلَى يُطَيِّرُ عَلَيَّ سِيَالِكُمُ الشَّرَّارَا

ويُحْمَلُ جرير زوجها صعصعة وقومها تبعة مسؤولية الخيانة؛ فقد استأمنوا جبيراً على ليلي وتركوها معاً، ولم تكن ليلي تبالي بشرفها وسمعة زوجها وقومها بعد أن سقطت في وحل الخيانة، كما أن جبيراً لم يكن يحسب حساباً لهم لضعفهم وهوانهم، يقول (73):

لَقَدْ أَوْلَعْتُ بِالْقَيْنِ خُورٌ مُجَاشِعٍ وَكَانَ بِهَا قَيْنٌ الْعُدَايَةَ مُوَلِّعَا
تَرَكْتُمْ جُبَيْرًا عِنْدَ لَيْلَى حَلِيفَةً أَصْعَعُ بِئْسَ الْقَيْنُ قَيْنُكَ صَعْصَعَا
وَمَا حَفَلْتُ لَيْلَى مَلَامَةً رَهْطَهَا وَلَا حَفِظْتُ سِرَّ الْحَصَانِ الْمَمْتَعَا

ولم يقتصر فحشها على جبير وحده بل إنها كانت -حسب رأي جرير- تواقع عبيدها ومنهم: مسروح وزعاب، وتتلذذ بحديثهم وفعلهم ولذا يحرّض جرير أبناءها ومنهم الفرزدق على إقامة الحد عليها لمعاقبته، وليخلصوا أنفسهم من الشكوك التي تعتمل في نفوسهم (74):

شَرُّ الْقِيُونِ حَدِيثًا عِنْدَ رَبِّتِهِ قَيْنًا قَفِيرَةً: مَسْرُوحٌ وَزَعَابُ
لَا تَنْرُكُوا الْحَدَّ فِي لَيْلِي فَكُلُّكُمْ مِنْ شَأْنِ لَيْلِي وَشَأْنِ الْقَيْنِ مُرْتَابُ

ويبدو أن كلف ليلي بـجبير هو جزء من عشق عام تظهره نساء مجاشع للقيون دون حياء؛ لعجز رجالهن عن معاشرتهن، فعشقهن للقيون يضاهاى حب النصارى للمسيح، وقد أضفى جرير على الصورة صفة اعتقادية لا تتضعع بل تزداد وتقوى، يقول جرير (75):

لَقَدْ وَحَدَّتْ بِالْقَيْنِ حُورٌ مُجَاشِعٌ كَوَجْدِ النَّصَارَى بِالْمَسِيحِ بْنِ مَرِيَمَا

ب- ادعاء ثبوت النسب إلى القين:

ينسب جرير غالباً أبا الفرزدق إلى القين جبير وليس إلى أبيه صعصعة، ويثبت ذلك من خلل الشواهد المادية الحسية؛ فماء القيون يجري في غالب وابنه الفرزدق، ويذكر أن الفرزدق تشربت مفاصله ودماؤه ماء جبير فكان الأصل أن ينسب لهذا القين، وليس ادعاءً نسبه لصعصعة بمخرجه عن أصله الحقيقي، وقد عرفت القوايل ذلك أثناء ولادته حينما رأين عينيه اللتين تشبهان عيني جبير، يقول (76):

وَأَنْتَ ابْنُ يَحْوِيَّةٍ مِنْ مُجَاشِعٍ تَخَضَّضُ مِنْ مَاءِ الْقِيُونِ مَفَاصِلُهُ
أَصْغَعُ مَا بَالُ ادْعَائِكَ غَالِبًا وَقَدْ عَرَفْتُ عَيْنِي جُبَيْرِ قَوَائِلُهُ

ويركز جرير على صورة عيني الفرزدق اللتين تشبهان عيني جبير، كما يراهما هو (77):

حَزَى اللَّهُ لَيْلِي فِي جُبَيْرِ مَلَامَةٍ وَقَبَحَ قَيْنًا بِالْفَرَزْدَقِ أَعْوَرَا

وينكر جرير على من يظن أن أصل غالب ثابت في بني مجاشع، بل هو حسب رأيه ابن جبير مستدلاً بصورته التي تشبه صورة جبير (78):

يَقُولُونَ: كَلَّا لَيْسَ لِلْقَيْنِ غَالِبٌ بَلَى إِنَّ ضَرْبَ الْقَيْنِ بِالْقَيْنِ يُعْرَفُ

5- أدوات القين

أ- فخر الفرزدق بها:

يحصر جرير مجد الفرزدق بالكبر والأدوات الأخرى الموجودة في الجلد الذي يحمله فوق ظهره، يقول (79):

أَلَا إِنَّمَا مَجْدُ الْفَرَزْدَقِ كِبْرُهُ وَذُخْرُ لَهُ فِي الْجَنْبَتَيْنِ قَعَاقِعُ

ويذكر أن الفرزدق لا يفخر إلا بالوعاء النحاسي، والكبر المرقع لكثرة استخدامه، والسندان الذي يطرق عليه الحديد أثناء عمله، يقول (80):

أَبْفَخْرُ بِالْمُحَمِّمِ قَيْنٌ لَيْلَى وَبِالْكَيْرِ الْمَرْقَعِ وَالْعَلَاةِ

ويقارب بين النوار زوج الفرزدق والجمان المنتهكين إذ بييت هؤلاء مع النوار في مخدع الفرزدق وبجانبه تظهر أكياره الجلدية ومواقده الحديدية فالجون والفجور تغلغلا في نفسه كتغلغل القيامة فيها سواء أكان يقضاً أم نائماً، يقول جرير (81):

فَمَا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَهْدِيمٌ دَارِنَا بِتَهْدِيمِ مَأْخُورٍ نَخْبِيثِ مَدَاخِلُهُ
وَفِي مَخْدَعِ مِنْهُ النُّوَارُ وَشَرْبُهُ وَفِي مَخْدَعِ أَكْيَارِهِ وَمَرَاجِلُهُ

ويعرضُ يقوم الفرزدق إذ استعانوا به على جرير ليهجوه، وأن للفرزدق الشعر وهو ذليل لأدواته وكيف له أن يطاول مجد جرير وقد آدم حرفة الحدادة فلا يحسن غير القرع على السندان؟ يقول (82):

وَحَانَ نَسْوُ قَفِيرَةٍ إِذْ أَتَوْنَسِي بِقَيْنِ مُذِينِ قَسْرَعِ الْعَلَاةِ

وبتهكم به وبحرفته، ويطلب منه أن يدع المعالي لقوم جرير فهم أولى بها وأعرف بسبلها وعليه أن يفخس بكيره، لأنه يكسب من النفع فيه، يقول (83):

وَأَنْتَ ابْنُ قَيْنٍ يَا فَرَزْدَقُ فَازْدَهْرِ بِكَيْرِكَ إِنَّ الْكَيْرَ لِلْقَيْنِ نَافِعُ
فَأَيْتُكَ إِنَّ تَنْفُخَ بَكَيْرِكَ تَلْفَنَّا نُعِدُّ الْقَنَا وَالْحَيْلَ يَوْمَ تَقَارِعُ

ويصفه بأنه انشغل عن مكارم العظماء وأخلاق الأشراف بنفخ الكير حتى اسودَّ وجهه من تطاير الدخان عليه وغدا أضحوكة للناظرين، فهو قبيح الشكل سيئ الخلق يسقي أمه بقية الخمر الباقية في كأسه بعد أن أتمله الشراب وأذهب عقله، يقول (84):

حَمَمْتَ وَجْهَكَ فَوْقَ كَيْرِكَ قَائِمًا وَسَقَيْتَ أُمَّكَ فَضْلَةَ الْحَرِبَالِ

وينصحه بأن يقعد عن الحرب ويستمر في عمله منتظراً أجره بعد أن يعود المحاربون، يقول (85):

فَأَنْفُخْ بِكَيْرِكَ يَا فَرَزْدَقُ وَانْتَظِرْ فِي كَرْتَبَاءِ هَدِيَّةِ الْقُقَالِ

ويبدو أن عدوى حبِّ الأدوات انتقل إلى ناقة الفرزدق فهي تحن إلى أدوات صاحبها إذا أبعثت عنها، وإذا ما رأتها فإنها تلتفت إليها بشوق وحنين كشوق الفرزدق وحنينه إلى تلك الأدوات، يقول (86):

تَلَفَّتْ وَهِيَ تَحْتَكُ يَا ابْنَ قَيْنِ إِلْسَى الْكَيْرِينَ وَالْفَاسِ الْكَهَامِ

ولشدة شغفه بالقيامة جعل بيته حانوتاً لممارسة تلك الحرفة تنتشر فيه الأدوات، ومنها الكير الذي لا تطفأ ناره بل تضطرم وتستعر وهذا الحال يغري جريراً بمجاء نساء مجاشع اللآتي رضين بذلك، يقول جرير (87):

سُبُوا الْجِمَارَ فَسَوْفَ أَهْجُو نِسْوَةَ لِلْكَيْرِ وَسَطِ يُوْرْتِهِنَّ أَوَارُ

ب- توريثها:

يشير جرير إلى أن أدوات القيامة واتقان العمل بها هي الميراث الوحيد الذي ورثه الفرزدق عن آبائه، فهم لا يملكون غيرها ليورثوه، فكانوا يحافظون عليها ويعدونها كترأ لا يفرط به، ومن هذه الأدوات السندان والموقد الذي تشعل فيه النار، كما يورثون طريقة العمل وكيفية الإصلاح، يقول جرير⁽⁸⁸⁾:

وَأُورِثَكَ الْقَيْنَ الْعَلَاةَ وَمِرْجَلًا وَإِصْلَاحَ أُخْرَاتِ الْفُؤُوسِ الْكَرَّازِمِ

وإذا كان الأبناء يرثون عن آبائهم المجد والسؤدد والأموال فإن الفرزدق لم يرث عن آبائه إلا كلبتين كان يقبض بهما جذه الحديد المحمى، وموقداً يتناثر فيه الرماد، ويصور جرير هذا الإرث بأنه فوز عظيم اطمأن إليه الفرزدق وكان به جذلا، ويفسد عليه جرير هذا الجبور والفرح بأن أوصاه بأسلوب ساحر ألا يفرط بهذا الميراث العظيم، ويدعوه بتهمك إلى المحافظة على هذه الحرفة، ويمهر فيها حتى يورثها لأبنائه، يقول جرير⁽⁸⁹⁾:

وَفَازَ الْفَرْزَدَقُ بِالْكَلْبَتَيْنِ وَعِدْلٍ مِنَ الْحَمَمِ الْأَسْوَدِ
فَرَّقَعَ لِحَدِّكَ أَكْيَارَهُ وَأَصْلِحَ مَتَاعَكَ لَا تُفْسِدِ
وَأَدْنِ الْعَلَاةَ وَأَدْنِ الْقُدُومَ وَوَسِّعْ لِكَبْرِكَ فِي الْمَقْعَدِ

ومن الوصايا الطريفة التي يذكرها جرير تلك التي أوصى بها جرير لغالب والد الفرزدق، إذ أوصاه بأن يترفق بلي الحديد العريض ويطويه برقة وأن يتعهد مثاقبه بالبرد والبري ليكون عمله متقناً ومحكماً، يقول جرير⁽⁹⁰⁾:

وَأَوْصَى جُبَيْرٌ إِلَى غَالِبٍ وَصِيَّةَ ذِي الرَّحِمِ الْمُحْهَدِ
فَقَالَ ارْفُقَنَّ بِلِيِّ الْكُتَيْفِ وَحَكِّ الْمَشَاعِبِ بِالْمُسْبَرِدِ

ج- الأدوات والموتى

من الصور الطريفة في شعر جرير أنه يقيم علاقة جدلية تواصلية بين والد الفرزدق بعد موته وأدواته، فيشير إلى دفن الأدوات في القبور كما يدفن البشر، ومن تلك الأدوات صفائح الحديد والملاقط والمناشير، وفي ظني أن دفنها مع أولئك القبور كان استخفافاً من جرير بهم؛ إذ دفنها معهم يعني أنها خير أعمالهم، وتبقى أرواحهم تحن لهذه الأدوات وتبكي كلما تشققت القدر والأوعية، وتعلقها بما بعد الموت يشي بالمهانة التي وُصم بها أولئك القوم ويشف عن مكانة أصحابها وأفعالهم وآمالهم، وأما القبور فإنها تنفر من جثثهم النتنة وترجف وتهتز حينما يلحد فيها جثث أولئك القوم لشدة رائحة الدخان الأسود الكريهة الخبيثة التي علفت بأجسامهم، يقول جرير⁽⁹¹⁾:

وَجَدَ الْكَيْفَ ذَخِيرَةً فِي قَبْرِهِ وَالْكَابِتَانِ جُمَعْنَ وَالْمِشَارُ
يَيْكِي صَدَاهُ إِذَا تَهَزَّمَ مِرْجَلُ أَوْ إِنْ تَسَلَّمَ بِرُمَّةٍ أَعَشَارُ
رَجَفَ الْمِقْرُ وَصَاحَ فِي شَرْقِيهِ قَيْنٌ عَلَيْهِ دَوَاحِنٌ وَشَرَارُ

6-صورة القين:

يقتنص جرير من حرفة القيانة صوراً يضيفها على الفرزدق وأبيه ومنها تلك الملامح التي تسم القيون وتحدد ألوانهم وأشكالهم، يقول جرير⁽⁹²⁾:

يَا ابْنَ الْقُيُونِ وَكَيْفَ تَطْلُبُ مَجْدَنَا وَعَلَيْكَ مِنْ سِمْةِ الْقُيُونِ نَحَارُ

ومنها صورة عيني غالب والد الفرزدق اللتين أثرَ فيهما الشرر المتطاير حتى فقتنا، يقول جرير⁽⁹³⁾:

وَقَفَّأَ عَيْنِي غَالِبٍ عِنْدَ كِبَرِهِ نَوَازِي شَرَارِ الْقَيْنِ حِينَ يُطِيرُهَا

ولكثرة نفخه في الكير قاعداً وتناثر الشرر على وجهه أكلت النار أعالي لحيته فأصبح ضحكةً، يقول جرير⁽⁹⁴⁾:

أَقَيْنُ يَا تَمِيمُ يَغِيبُ قَيْسًا يُطِيرُ عَلَيَّ لَهَازِمِهِ الشَّرَارُ

ولما أبصرت حدراء زوجها الفرزدق نكرت منظره، وسخرت من علوق الصداً بجلده، فلطول ملازمة هذا بجسمه استحال لونه إلى لون الرماد، وقصرت أصابعه وتقفعت من كثرة التعامل بالجمر ومسك الملاقط، يقول⁽⁹⁵⁾:

لَمَّا رَأَتْ صَدَأَ الْحَدِيدِ بِجِلْدِهِ فَالْلَوْنُ أَوْرُقُ وَالْبَنَانُ قِصَارُ

كما يذكر جرير أن حدراء أنكرت رائحته الخبيثة، وهي رائحة الدخان وعرق الفرزدق وجوفه، يقول جرير⁽⁹⁶⁾:

حَدْرَاءُ أَنْكَرَتْ الْقُيُونََ وَرِيحَهُمْ وَالْحَرُّ يَمْنَعُ ضَيْمَهُ الْإِنْكَارُ

وليعطي الصورة منحى أكثر صدقاً وواقعية يذكر على لسان النوار زوج الفرزدق الأخرى استقباحها لرائحته حينما تعاشره وتشم رائحته، فتبغضه وتكره لقاءه ولذلك خائنه مع خصمه جرير⁽⁹⁷⁾:

فَبَاتَتْ نُوَارُ الْقَيْنِ رِيحاً حِقَابُهَا تُنَارِعُ سَاقِي سَاقِيهَا حَلَقَ الْحِجْلِ⁽⁹⁸⁾

نُقِبَّحُ رِيحِ الْقَيْنِ لَمَّا تَنَاوَلَتْ مِقْدَ هِجَانٍ إِذْ تُسَاوِفُهُ فَخْلِ⁽⁹⁹⁾

7- مقارنات بين القيون وقوم جرير:

يقيم جرير مقارنة تنافرية بين القيون وبين قومه وهذه المقارنة تسير في خطين متنافرين أحدهما حرفة القيون وتبعاتها والآخر حربي قتالي وتبعاته، فلا يمكن أن يستوي القيون وأبناؤهم ومنهم الفرزدق وقوم جرير الذين احترفوا الحرب وبعثوها كما يريدون، فأولئك القيون قعدوا مع الخوالم كالنساء ينفخون الأكبار ويرقعون ثلماً القدور بينما قوم جرير يسرون ليحاربوا الملوك ويغتصبوهم عروشهم، يقول (100):

إِنَّا وَقَيْنَكُمُ يُرْقَعُ كَبِيرُهُ سِرَّتْنَا لِنَغْتَصِبَ الْمُلُوكَ وَسَارُوا

وإذا كان الفرزدق مشغولاً بالنفخ لإشعال النار وإصلاح أدواته، فإن جريراً وقومه مشغولون بإعداد الأسلحة وأعمال الخيل العادية لمنازلة أعدائهم ليحموا ذمار أبيهم، فستان ما بين الفتيتين وما بين أهدافهما وسبل تحقيقها، يقول جرير (101):

فَأِنَّكَ إِنْ تَنْفُخَ بِكَبِيرِكَ تَلْقَنَا نُعِدُّ الْقَنَا وَالْحَيْلَ يَوْمَ نَقَارِعُ

ويقارن بين آباء الفرزدق وآبائه من خلال المقارنة بين أدوات الفريقين، وإمّا لمقاربة ضيزى وجائرة إن تمت بين القيون وأكبارهم وبين آباء جرير وحيولهم الملجمة القوية (102):

أَبَا لِكَبِيرَيْنِ تُعْدِلُ مُلْجَمَاتٍ عَلَيْهِنَّ الرَّحَائِلُ وَالذُّبُودُ

وتقتصر وظيفة الفرزدق وآبائه على صنع السيوف وصلقلها ليضارب بها جريراً وقومه، وهي صورة تنكير في شعر جرير ومنها قوله (103):

وَأَنْتُمْ قِيُونَ تَصْفِلُونَ سِيُوفَنَا وَنَعَصِي بِهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مُشَهَّرٌ

ويقيم مقارنة بين نساء قومه العفيفات وبين بنات ليلي، ولا يمكن أن يستوي أبناء أولئك الحرائر وأبناء حدينة القين، يقول (104):

وَهَلْ يَسْتَوِي أَبْنَاءُ قَيْنٍ مُحَاشِعٍ وَأَبْنَاءُ سِرِّ الْعَانِيَاتِ الْعَوَازِمِ (105)

ويدعو عليه بأن تشل أصابعه إن هو قارب أو ساوى بين قومه وبين قبيلة شيبان المشهورة بحروبها وانتصارها على الفرس في ذي قار، ونلاحظ أن دعواه كانت على الأصابع لأنها الوسيلة الرئيسية في عمل القيون، وأهم ما يغيط القيون هو أن تشل أصابعهم فيخسروا حرفتهم ورزقهم، إنه استهزاء جرير وتهكمه، يقول (106):

أَتَجْعَلُ يَا ابْنَ الْقَيْنِ أَوْلَادَ دَارِمٍ كَشَيْبَانَ شَلَّتْ مِنْ يَدَيْكَ الْأَصَابِعُ

وألى هذه الأصابع أن تتقن ضرب السيوف وقرع الكنايب؟ وكيف يكون بنانه ليقاً بتصريف القنا وهو لا بمهر إلا في مسك الملاقط وقص صفائح الحديد؟! ويكشف جرير عن معاناة الفرزدق النفسية حينما لا يقدر

على فعل ما يفعله البواسل إذ يغشاه الغمُّ والهَمُّ والحزن كأنها أمواج عاتية تعلوه وتتقاذفه، أو كأنه ميت قسبرٍ وألقي في العذاب الشديد، يقول جرير (107):

فَطَاشَتْ يَدُ الْقَيْنِ الدَّعِيَّ وَغَمَّهُ ذُرَاً وَأَشِيقَاتٍ يَرْتَمِينَ مِنَ الْبَحْرِ
لَعَلَّكَ تُرْجُو أَنْ تَنْفَسَ بَعْدَ مَا غَمِمْتَ كَمَا غَمَّ الْمُعَذَّبُ فِي الْقَبْرِ

وكيف للقين أن يذهب للحرب وهو ذليل لا همة تدفعه للقتال أو الحياة الشريفة بل يساقل إلى الأرض، ويركس إلى مواقد النار يؤثر الحياة الذليلة على الموت الكريم، يقول جرير (108):

وَلَوْ خُسِيرَ الْقَيْنُ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَبَيْنَ الْمَنِيَّةِ لاختَارَهَا

ولم يحترف القيون حرفتهم تلك فقط بل احترفوا أيضا التجارة، فهم يتاجرون بصفائح الحديد، وأما قوم جرير فإنهم يتاجرون بالموت ويبعونه لأعداهم ويقبضون الحياة الكريمة ثمنا له، يقول (109):

لَيْسَتْ لِقَوْمِي بِالْكَثِيفِ تَحَارَةً لَكِنَّ قَوْمِي بِالطَّعَانِ تَحَارُ

والمقارنة تدعو جريراً إلى الفخر بنفسه فهو الشاعر المفلق المصقع بينما الفرزدق ينتحل شعره انتحالاً ويجمعه من أسلاب الشعراء؛ فمن رضى بأن يقعد مع الخوالف أمام المواقد ينفخ كيره فإنه سيرضى بأن يسرق الشعر وينسبه لنفسه، يقول جرير (110):

سَتَعْلَمُ مَنْ يَصِيرُ أَبُوهُ قَيْنًا وَمَنْ عَرَفَتْ قَصَائِدُهُ اجْتِلَابًا

الخلاصة:

خلصت هذه الدراسة إلى نتائج علمية هي: أن الشعر الجاهلي ظل مصدراً أصيلاً يلتفت إليه الشعراء الأمويون، ومنهم جرير الذي استمد فكرة القين من الصيغة الجاهلية التي تدل على نافخ الكير الذي سخر الشعراء من عمله ومنظره.

إن فكرة القين ومعانيها وصورها من أكثر الموضوعات الشعرية وردوداً في نقائض جرير، وقد رأى بعض القدماء أن جريراً لا يخرج في نقائضه عن ثلاثة أو أربعة موضوعات لا تتجاوزها، بيد أننا إذ استقرأنا شعر جرير نجد أنه يتضمن معاني كثيرة ومتنوعة يتولد منها معانٍ وصورٌ مختلفة، وقد بذل طاقة فنية دقيقة في تجويد نقائضه، وفكرة القين ترد في كل نقائضه، فهي صورة فنية ولدت منها جرير معاني جديدة لوّكها بتلوينات مدهشة، وجرير هو الذي ابتكر هذا اللقب، وخلا شعر الفرزدق من أي رد أو دفع لهذه التهمة الجريرية، وينوع جرير صيغ الخطاب حينما يخاطب الفرزدق وقومه ومنها صيغة القين وابن القين وابن نافخ الكير وابن ذي الكيرين، ويطلق على بني مجاشع القيون وبني القين وبني بنت القين.

وأصل جرير مصدر الصورة شعريا، إذ بَيَّنَّ أن ليلي جدة الفرزدق تحتاحها شهوة عارمة حينما تتذكر القين جُبِيراً الذي ادعى جرير أنه واقعها، وأنجبت منه غالباً والد الفرزدق، وهي دائمة الحنين إليه وإلى عرقه المتن، كما كانت توافق غيره من العبيد دون حياء أو وجل من زوجها صعصعة أو قومها، ويحاول جرير أن يثبت نسب الفرزدق لجرير من خلال الأدلة المادية الجسمية.

وحينما يتحدث جرير عن أدوات القين يجعل الفرزدق دائم الفخر بها، لأنه مدمن على النفخ في الكير حتى اسود وجهه وقبح شكله، وجعل بيته حانوتاً تمارس فيه تلك الحرفة وتجمع فيه أدواتها، ومن هذه الأدوات: الكير والعلالة والملاقط والمواقد والصفائح الحديدية وهي الميراث الوحيد الذي ورثه الفرزدق عن آبائه، وكان جبر يوصي الفرزدق بالمحافظة عليها وإتقان العمل بها، ومن الصور الطريفة في شعر جرير الإشارة إلى أن القيون يدفنون أدواتهم مع موتاهم وأن القبور تنفر من جثثهم ذات الرائحة الكريهة.

ومن خلال دراسة الصورة الجسمية للقين تبين أن عيني غالب قد فقتنا لتطايير الشرر فيهما، كما احترقت لحيته، واستحال لونه إلى لون الرماد، وأن له رائحة كريهة.

وفي الحديث عن المقارنة بين الفرزدق وقومه من ناحية وجرير وقومه من ناحية أخرى كشف الشاعر عن مقارنة تنافرية، إذ نرى الفرزدق مشغولاً بالنفخ في الكير عن الحرب التي يدير جرير وقومه رحاها، ويشعلون أوارها، وتقتصر وظيفة القيون على صناعة السيوف والتجارة بالحديد، ويدعو على الفرزدق بأن تشل أصابعه وهي دعوة موجهة للقيون.

الهوامش

- 1- د. محمد عثمان علي، في أدب الإسلام، دار الأوزاعي، بيروت، 1986م، ص439.
- 2- في الشعر الإسلامي والأموي، دار النهضة العربية، 1987، ص361.
- 3- د. شوقي ضيف، التطور والتحديد في الشعر الأموي، ط6، دار المعارف، القاهرة، ص174. وانظر ص191.
- 4- انظر مثلاً: ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق وشرح، د. حسين نصار، ط1، مكتبة مصطفى الباي الحلبي، وأولاده، مصر، 1957، ص101. ديوان طرفة بن العبد، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1975، ص22. ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني، تحقيق صلاح الدين الهادي، دار المعارف، القاهرة، 1968، ص459. شرح ديوان لبيد بن ربيعة العاملي، تحقيق د. إحسان عباس، ط2، وزارة الإرشاد والأبناء، الكويت، 1969، ص96. ديوان المنقب العبد، تحقيق حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، مصر، 1971م، ص165. ديوان سلامة بن جندل التميمي، تحقيق فخرالدين قباوة، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، ص167، شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعة الإمام ثعلب الشيباني، الدار القومية، القاهرة، 1964، ص318. ديوان علقمة الفحل، تحقيق لطفي الصقال ودرية الخطيب، ط1، دار الكتاب العربي، حلب، 1969، ص54.
- 5- الكير: جلد يستخدمه الحداد للنفخ في النار لإشعالها.
- 6- عبدالحميد محمد المعيني، شعر بني تميم في العصر الجاهلي، منشورات نادي القصيم، المملكة العربية السعودية، 1982، ص367. ضائب بن الحارث، شاعر جاهلي من بني تميم كان هجاءً خبيث اللسان. انظر المصدر السابق، ص362. وانظر هذه الصورة في: شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، ص318. الضاريات: الكلاب، أحول: متفرقة.
- 7- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد الطاهر ابن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976، ص35.
- 8- ديوان الأعشى، شرح وتعليق د. محمد محمد حسين، مكتبة الآداب، مصر، 1950، ص315.
- 9- ديوان عمرو بن كلثوم، جمعه وحققه د. إميل بديع، يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، 1991م، ص25.
- 10- شرح ديوان حسان بن ثابت، تحقيق، عبدالرحمن البرقوقي، دار الأندلس، بيروت، ص297.
- 11- المرزابي، الموشح، تحقيق علي محمد الجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، 1965، ص193.
- 12- المصدر السابق، ص193.
- 13- المصدر نفسه، ص196.

- 14- ضياء الدين ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق د. أحمد الحسني، ود. بسدي طبانة، القسم الثالث، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ص275.
- 15- الموشح، ص198.
- 16- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ص275.
- 17- كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، تحقيق، علي محمد البحراوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1986م، ص24.
- 18- شرح ديوانه، ضبط معانيه وشروحه وأكملها إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م.
- 19- شرح الديوان، ص202، 203، 205، 222، 227، 275، 387، 423، 453، 538، 539، 553.
- 20- المرجع السابق، ص47، 66، 204، 327، 462، 617، 673، 654.
- 21- نفسه، ص204، 230، 274، 278، 299، 325، 667.
- 22- نفسه، ص666.
- 23- نفسه، ص47، 327.
- 24- نفسه، ص47، 389، 244، 557.
- 25- نفسه، ص241، 482.
- 26- نفسه، ص66، 425، 463، 493، 540، 581، 601، 353، 665، 671.
- 27- نفسه، ص105، 388، 406، 407، 438، 457.
- 28- نفسه، ص519، 579.
- 29- نفسه، ص124، 240، 386.
- 30- نفسه، ص152.
- 31- نفسه، ص191، 204، 227، 298، 339، 343، 407، 454، 463، 491، 551، 579، 666، 687.
- 32- نفسه، ص152. شقي ثمود: هو الذي عقر ناقة الرسول نوح بعد أن نُهي عن ذلك.
- 33- نفسه، ص299.
- 34- نفسه، ص389.
- 35- نفسه، ص105، 388، 406، 407، 438، 457.
- 36- نفسه، ص389.
- 37- نفسه، ص240، 424.
- 38- نفسه، ص388، 389، 412، 426، 457، 463، 450، 564، 652.
- 39- نفسه، ص327، 375، 418، 571، 537، 599.

- 40- د. شوقي ضيف، العصر الإسلامي، دار المعارف، مصر، ط8، ص242.
- 41- د. شوقي ضيف، التطور والتجديد، ص199.
- 42- د. إحسان النص، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، دار اليقظة العربية، ص527.
- 43- ابن الأثير، المثل السائر، ص280.
- 44- التطور والتجديد، ص201.
- 45- الأغاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1986، 8:250.
- 46- الموشح، ص207.
- 47- الأغاني، 8:268. وانظر: الموشح: 184.
- 48- كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، ص23، 24.
- 49- الموشح، ص194.
- 50- شرح ديوان جرير، ص711.
- 51- الكزوم: الناقة ذهبت أسنانها.
- 52- شرح نقائض جرير والفرزدق، أبو عبدة، تحقيق د. محمد إبراهيم حور، ود. وليد محمود خالص، ط1، 1994، د.م، ص351.
- 53- شرح الديوان، ص556.
- 54- شرح الديوان، ص407.
- 55- شرح الديوان، ص407.
- 56- شرح نقائض جرير والفرزدق، 1:294.
- 57- د. محمد محمد حسين، الهجاء والمجاءون في صدر الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، 1969م، ص196.
- 58- شرح ديوانه، ص154، وانظر ص94، 105، 225، 240، 241، 289، 299، 324، 344، 369، 388، 396، 407، 408، 438، 462، 490، 496، 551، 580، 665، 667، 668، 669، 670.
- 59- المصدر السابق، ص296، والمدعثر: المهدم. وانظر ص299، 300، 322، 329، 579، 665، 547، 510.
- 60- نفسه، ص665، وانظر ص668، 669، 670.
- 61- الفطوح: البري. المساحي: جمع المسحاة وهي المشط.
- 62- شرح ديوانه، ص530، وانظر: ص93، 170، 168، 241، 325، 331، 455، 463، 464، ص491، 537، 539، 547، 510، 550، 555، 561، 563.
- 63- الفرند: السيف. الفلول: التلّم.

- 64- شرح الديوان، ص 551 ضفا: صاح وصوت، وانظر: ص155، 154، 232، 242، 243، 246، 551، 661.
- 65- المصدر السابق، ص551. الزبيرقان: شاعر من الصحابة وهو من قبيلة بني تميم. العلاة: السندان.
- 66- نفسه، ص551. القروم: الفحول. الشبا: الحدّ. يُقلل: يتلم.
- 67- نفسه، ص508، الخنايص: صغار الخنزير، وانظر: ص407، 454.
- 68- النقائص، 2: 1059.
- 69- شرح ديوانه، ص299.
- 70- المصدر السابق، ص463.
- 71- نفسه، ص426.
- 72- نفسه، ص343.
- 73- نفسه، ص412.
- 74- نفسه، ص67.
- 75- نفسه، ص652.
- 76- نفسه، ص581.
- 77- نفسه، ص299. وانظر: ص463.
- 78- نفسه، ص463، وانظر: ص412.
- 79- نفسه، ص455.
- 80- نفسه، ص105.
- 81- نفسه، ص580-581.
- 82- نفسه، ص106.
- 83- نفسه، ص454.
- 84- نفسه، ص563.
- 85- نفسه، ص565.
- 86- ص601. الكهام: النايبة.
- 87- نفسه، ص242.
- 88- نفسه، ص665. الأخرات: الثقوب. الكرازم: الواحدة كرزوم: السفاس ذات الحدين، وانظر ص46، وفيها ذكر للعلاة وتوريتها.
- 89- نفسه، ص154. الكلبتان: آلة من حديد يأخذ بها الحدّاد الحديد المحمّي. الحمم: الرماد.

- 90- نفسه، ص153. ولي الكتيّف: طيّ الحديد. المشاغب: الجوانب.
- 91- نفسه، ص240.
- 92- نفسه، ص246.
- 93- نفسه، ص326.
- 94- نفسه، ص289.
- 95- نفسه، ص241.
- 96- نفسه، ص241.
- 97- نفسه، ص557.
- 98- حقاب: ما تشده على وسطها تعلق به الحلّى.
- 99- مقدّ: بين الأذنين من خلف ومنتهى منيت الشعر من مؤخر الرأس. هجان: الكريم. تساوفه: تشامه
- 100- نفسه، ص245.
- 101- نفسه، ص454.
- 102- نفسه، ص191. وانظر: ص191، 664.
- 103- نفسه، ص331. وانظر: ص155، 168، 539، 581.
- 104- نفسه، ص664.
- 105- العوازم، جمع العاذمة، وهي التي تدافع عن نفسا ونعق بمهاجبيها.
- 106- نفسه، ص437.
- 107- نفسه، ص340.
- 108- نفسه، ص383.
- 109- نفسه، ص245.
- 110- نفسه، ص91.

المراجع

1. د. إحسان النص؛ العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، دار اليقظة العربية، د.ت.
2. الأعشى: ديوانه، شرح وتعليق د. محمد محمد حسين، مكتبة الآداب، مصر، 1950م.
3. أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1986م.
4. جرير: شرح ديوانه، ضبط معانيه وشروحه وأكملها إيليا الحاروي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م.
5. حسان بن ثابت: شرح ديوانه، تحقيق عبدالرحمن البرقوقي، دار الأندلس، بيروت، د.ت.
6. زهير بن أبي سلمى: شرح ديوانه، صنعة الإمام ثعلب الشيباني، الدار القومية، القاهرة، 1964.
7. سلامة بن جندل، الديوان، تحقيق فخر الدين قباوة، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت.
8. الشماخ بن ضرار الذبياني: ديوانه، تحقيق صلاح الدين الهادي، دار المعارف، القاهرة، 1968م.
9. د. شوقي ضيف: 1- التطور والتجديد في الشعر الأموي، ط6، دار المعارف، القاهرة. العصر الإسلامي، ط8، دار المعارف، مصر.
10. ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، مكتبة هضبة مصر، القاهرة، د.ت.
11. طرفة بن العبد: ديوانه، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1975م.
12. د. عبدالحميد المعيني: شعر بني تميم في العصر الجاهلي، منشورات نادي القصيم، المملكة العربية السعودية، 1982م.
13. عبيد بن الأبرص: ديوانه، تحقيق وشرح د. حسين نصار، ط1، مكتبة مصطفى الباني الخلسي وأولاده، مصر، 1957م.
14. أبو عبيدة: شرح نقائض جرير والفرزدق، تحقيق د. محمد إبراهيم حور ود. وليد محمود خالص، ط1، 1994، د.م.
15. علقمة الفحل: ديوانه، تحقيق لطفي الصقال ودرية الخطيب، ط1، دار الكتاب العربي، حلب، 1969م.
16. عمرو بن كلثوم: ديوانه، جمعه وحققه د. أميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، 1991م.
17. د. عبدالقادر القط: في الشعر الإسلامي والأموي، دار النهضة العربية، بيروت، 1987م.
18. ليبيد بن ربيعة: شرح ديوانه، تحقيق د. إحسان عباس، ط2، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، 1962م.

19. د. محمد عثمان علي : في أدب الإسلام، ط2، دار الأوزاعي، بيروت، 1986م.
20. د. محمد محمد حسين: الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، 1969م.
21. المثقب العبدى: ديوانه، تحقيق حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، مصر، 1971م.
22. المرزباني أبو عبيدالله محمد بن عمران بن موسى: الموشح ، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، 1965م.
23. النابغة الذبياني: ديوانه تحقيق محمد الطاهر ابن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976م.
24. أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، 1986.